التسامح بين الإسلام والمسيحية عند الشيخ محمد الغزالي

د/ السعيد رحماني
أستاذ محاضر بكلية العلوم الإسلامية
جامعة الجزائر1

بسم الله الرحمان الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

التسامح كقيمة إنسانية عالمية أمر تهفو إليه نفوس الحكماء والعلماء في كل الملل والنحل، وكفكرة نظرية جميلة ومجردة؛ لم تخل منه أدبيات كل الثقافات والفلسفات، بله الديانات السماوية، وحتى الوضعية.

ولكن قد تكون الفكرة من الناحية النظرية المجردة موجودة واضحة، ومطلوبة لدى الجميع، ومن اليسير أن نتحدث عن الفكرة ونتفلسف في صياغة مفاهيمها النظرية المجردة، ونعدد مزاياها المتعددة، ولكن البون شاسع بين التنظير والتطبيق، بل الصعوبة كل الصعوبة في أن نجسد الفكرة وننقلها من مستوى التنظير إلى مستوى الفعل والتطبيق.

ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا إن من أكثر الأفكار رواجا من حيث التنظير، ومن حيث التفكير المجرد في الفكر الإنساني (فكرة التسامح)، لكنها في الواقع وفي التطبيق من أكثرها غيابا. وكل من المسلمين والمسيحيين يدعي أنه أكثر تسامحا من الآخر، وينسب إلى خصمه أو عدوه، أو الطرف الآخر عدم التسامح. وهذا في الحقيقة هو الإشكال الكبير الذي يواجه فكرة التسامح في العالم.

وهذا هو السبب الذي أثار انتباهنا ودفعنا إلى العناية بدراسة قضية التسامح بين المسيحية والإسلام من منظور أحد الشخصيات الإسلامية المعاصرة، التي

سجلت حضورها العلمي والفكري المتميز في العالم الإسلامي، ألا وهو أستاذنا الكاتب المرموق والداعية الألمعي الذكي، العالم الأزهري (الشيخ محمد الغزالي) رحمة الله عليه، وذلك من خلال كتابه المتميز (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام).

وستعالج هذه المحاولة المحاور التالية:

المحور الأول ويتناول الآتي:

مفهوم السماحة والتأسيس القرآني لها.

التعريف بالشيخ الغزالي، وبكتابه.

المحور الثاني ويتناول ما يلي:

الإسلام بين عدويه العصبية والتعصب.

المسلمون وأهل الذمة.

أسلوب المعاملة بين الديانتين.

هل أضرت بالمسلمين سماحتهم.

مفهوم السماحة:

السماحة قيمة عالية من قيم الإسلام التي تضمنتها نصوصه من كتاب وسنة، وقد تجسد التسامح في واقع المسلمين حتى غدا أهم ما يميزهم عن غيرهم، فما هو التسامح؟

تناول الكثير من العلماء والباحثين السماحة والتسامح في كتبهم ومؤلفاتهم، فعرفوها وشرحوها، وفيما يلي بعض ما جاء في تعريف السماحة:

يقول الطاهر بن عاشور في تعريف السماحة: "السماحة هي سهولة المعاملة فيما اعتاد الناس فيه المشادة، فهي وسط بين الشدة والتساهل، ولفظ السماحة هو أرشق لفظ يدل على هذا المعنى"[1].

ويقول في بيانها أيضا الدكتور محمد عمارة: "السماحة تعني المساهلة واللين في المعاملات، والعطاء بلا حدود، ودونما انتظار ولا مقابل، أو حاجة إلى

جزاء.."[2]. فالسماحة تدل على خلق البذل والجود، وهي أكمل وصف لاطمئنان النفس وأعون على قبول الهدى والإرشاد، كما يقول ابن عاشور.[3]

والسماحة في النسق الإسلامي ليست مجرد كلمة تقال، ولا شعار يرفع، ولا حتى صياغة نظرية تأملية ومجردة، كما أنها ليست مجرد فضيلة إنسانية، يمنحها حاكم ويمنعها آخر.. وإنما هي أكبر من ذلك بكثير في مفهوم الإسلام. إنها كما يقول محمد عمارة: "دين مقدس، ووحي إلهي.. وبيان نبوي لهذا الوحي الإلهي.. وتجسيد وتطبيق لهذا الدين في دولة النبوة..."[4]

وقد حافظ الإسلام على استدامة السماحة لأحكامه، كما دعا إلى المحافظة عليها في تاريخه وفي معاملة أتباعه للناس، بغية أن تكون ثمرة للدين الخالد والشريعة الخاتمة، وأن تظل منهاجا للإسلام والمسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

التأسيس القرآني للسماحة:

لقد بدا القرآن الكريم فأسس للسماحة الإسلامية على قاعدة الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود.

ففي هذا الوجود هناك (حق) هو الله سبحانه وتعالى، وخلق يجمع جميع عوالم المخلوقات.

وانطلاقا من هذا التصور الفلسفي الإسلامي للوجود تكون الواحدية والأحدية لله سبحانه وتعالى وحده فقط، بينما تقوم كل عوالم الخلق الأخرى (النباتية والمادية والحيوانية والإنسانية.. والفكرية) على التعدد والتنوع والتمايز، والاختلاف، باعتبار هذا التنوع والتمايز والتعدد قانونا إلهيا تكوينيا، وسنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل.[5]

وعندما تغدو السماحة بهذا المفهوم الفلسفي العميق الذي أرادته المذهبية الإسلامية، فإن النتيجة الحتمية لذلك هي "أن يتعايش جميع الفرقاء المتخالفين، ويتعارف جميع عوالم الخلق، ويسود خلق التسامح في العلاقات بين الشعوب، والثقافات والحضارات، والمذاهب، والفلسفات، والشرائع والملل والديانات والأجناس والألوان واللغات والقوميات.."[6] هذه هي السماحة التي أسس لها القرآن

في آياته التي منها: قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات /13.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ (الروم /22.).

وقوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة /48). وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ (هود /118 ـ 119).

وبدون السماحة يستحيل تعايش هذه التعددية، التي هي علة الوجود، وسر التسابق في عمران هذا الكون. وفي التأسيس القرآني لمبدإ السماحة الذي يقوم على التنوع والتعددية والاختلاف، يأمر أتباعه بالعدل- الذي هو معيار النظرة القرآنية، وروح الحضارة الإسلامية- ويطالبهم بتجسيده على مستويات متعددة هي:

على مستوى النفس، فيأمر بالعدل معها، فيقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء /97).

على مستوى العدل مع الآخر، يقول: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ﴾ (الشورى /51). ويقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴾ (النساء / 135).

وبالنسبة إلى هذا الآخر يأمر الإسلام بالعدل معه ولو كنا نكرهه، فيقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة /8).

ويأمرنا بالعدل معه ولو كان معتديا علينا، فيقول: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ (البقرة / 194). بل ويفضل الصبر والعفو على القصاص العادل، فيقول: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ

لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (النحل /126 ـ 128).

بل ويوجب الإسلام العدل مع المخالفين في العقيدة، والتمييز بين مواقفهم، فيقول: ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران / 113). ويقول: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (آل عمران / 199). وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران / 75). بهذه النظرة التي تقوم على عدم التسوية بين الفرقاء يقيم الإسلام مبدأ السماحة ويؤسس له هنا كما أسس له فيما سبق الحديث عنه.

وبهذا يأتي التأسيس القرآني للسماحة الإسلامية قائما على الرؤية الفلسفية للكون والوجود المحكومة بالتعدد والتنوع والتمايز والاختلاف، ليكون قانونا تكوينيا أزليا أبديا، فتتحول السماحة إلى ضرورة لازمة وفريضة واجبة لبقاء قانون التنوع والاختلاف عاملا ومرعيا في عوالم المخلوقات والفلسفات والشرائع والديانات والثقافات والقوميات والحضارات.[7] إذا كان مفهوم التسامح يكتسي هذا الطابع المميز ويتموقع في النصوص الإسلامية على هذا النسق، وبهذا التأسيس، فما هو موقعه في التاريخ الإسلامي؟ وكيف كان موقف غير المسلمين منه وبالخصوص النصارى؟ وقبل أن نعرض لهذه القضايا من خلال فكر الشيخ الغزالي نود أن نلقي نظرة سريعة على حياة الشيخ وفكره.

نبذة عن الشيخ الغزالي وفكره:

ولد الشيخ محمد الغزالي في 30 محرم 1341هـ الموافق لـ22 سبتمبر 1917م، بقرية نكلة العنب بمحافظة البحيرة بمصر.

تلقى تعليمه الأولي والثانوي في معهد الإسكندرية الديني، حفظ القرآن مبكرا، التحق بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر سنة 1937م.

تلقى العلم على يد علماء كبار في الأزهر الشريف كالشيخ عبد العظيم الزرقاني، والشيخ محمود شلتوت والدكتور محمد يوسف موسى، والشيخ محمد غلاب.

كما أخذ من مدرسة فكرية عريقة هي مدرسة عبده والمنار، كما تأثر بالمصلح الكبير الإمام حسن البنا.

المناصب التي تقلدها:

ترقى الغزالي في مناصب عديدة، فعين مستشارا في المساجد، ثم واعظا في الأزهر ثم وكيلا لقسم المساجد ومديرا للمساجد، ومديرا للتدريس، وفي عام 1971عين مديرا عاما للدعوة والإرشاد، ووكيلا لوزارة الأوقاف لشؤون الدعوة الإسلامية بمصر.

التدريس الجامعي:

أعير الشيخ الغزالي ليكون أستاذا بجامعة أم القرى بمكة 1977.

كما عمل أستاذا بجامعة قطر وبجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، بقسنطينة بالجزائر، وعين رئيسا للمجلس العلمي بها، كما ترأس المجلس العلمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي.

رحلاته العلمية:

زار العلامة الشيخ الغزالي الكثير من الأقطار العربية الإسلامية وبلدان العالم الأخرى، وشارك في مؤتمرات عالمية كثيرة، حول قضايا الثقافة وحوار الأديان والثقافات، ومشكلات العالم الإسلامي المعاصر.

ألف كتبا كثيرة في شتى مجالات الثقافة الإسلامية. طبعت في بلاد عربية وإسلامية.

نال الاحترام والتقدير الكبيرين لدى الجماهير المسلمة، ولدى المثقفين على مختلف أطيافهم، كما نال التقدير والاحترام لدى كثير من الساسة والزعماء في العالمين العربي الإسلامي.

كان واسع الثقافة كثير الاطلاع على ثقافات العالم، وقضايا التاريخ والحضار. يتميز بالذكاء والجرأة والشجاعة، ويحمل فكرا إسلاميا أصيلا، ومتميزا في طرحه، ومعالجته لمشكلات العالم الإسلامي، وأسباب تخلفه. لا

يخاف المواجهة الفكرية والمناظرة العلمية مع خصوم الإسلام من العلمانيين واليساريين، عالي الثقة بالنفس، وبما عنده من الموروث الثقافي والديني.

ومن أشهر مقولاته:

- الإسلام قضيته عادلة يتولى الدفاع عنها محام فاشل.

- الحضارة الغربية باقية لن تزول حتى يأتي خصومها بالبديل.

- سئل ذات مرة (هل نحن مسيرون أم مخيرون)، فقال هم في الغرب مخيرون ونحن في الشرق مسيرون.

- قال عن التيار السلفي لا سلف ولا خلف بل هم حنابلة يكذبون.

لم يتوقف عن العطاء الفكري إلى أن توفاه اللّٰه سنة 1996م أثناء مشاركته في ندوة فكرية بالرياض ودفن بمقبرة البقيع بالمدينة المنورة[8].

خصاله:

يقول د.طه جابر العلواني، حين يُذكر الشيخ الغزالي يتبادر إلى الأذهان جملة خصال قلّ أن تتوافر كلها، أو تجتمع بجملتها في عالم معاصر، ومن هذه الخصال الحميدة:

1- الاجتهاد القائم على سعة الإسلام ومرونته ومقاصد شريعته وكليات مصادره، وغاياته العليا.

2- السماحة والاعتدال اللذان ينبهان بوضوح إلى الفهم الدقيق لوسطية الإسلام، والإدراك العميق لقيمه العليا [التوحيد+ العمران+التزكية] والفقه المستفيض في معيار الإسلام الأساس [العدل] الذي منه انبثق الاعتدال، واشتقت الوسطية.

3- الغيرة الصادقة على الأمة التي انتمى إليها بعقله وقلبه ووجدانه فضلا عن دمه وجسده، غيرة صادقة على دينها وأرضها وعرضها وأبنائها وماضيها وتاريخها وحاضرها ومستقبلها ووحدتها.

4- القدرة النقدية والطاقة العقلية، والمعرفة المتنوعة الواسعة، والذكاء الخارق اللماح، والطاقة المتجددة المتطلعة – على الدوام - إلى معرفة الجديد والمزيد في كل ما من شأنه أن يخدم هذه الأمة وقضاياها المتشعبة.

5- الحب والوفاء لربه ولنبيه ودينه وأمته، ورفاقه وتلامذته، يساعده على ذلك قلب كبير نقي من الغل والحقد والحسد والبغضاء والكراهية، خالص الإيمان والحب والوفاء(9).

هذه نبذة مختصرة عن حياة هذه الشخصية البارزة في العالم الإسلامي المعاصر، أما عن موقفه من فكرة التسامح بين الإسلام والمسيحية فذلك ما سنبحثه في المحور الآتي:

التعصب والتسامح بين الديانتين:

كتب الشيخ محمد الغزالي كتابه المتميز في عنوانه ومضمونه (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام) ليبين حقيقة التسامح والتعصب بين الديانتين، ويكشف عن موقف الإسلام المتميز في هذا الموضوع الخطير.

فلماذا كتب الكتاب؟ وما هي القضايا التي تعرض لها؟

أولا: لماذا كتب الشيخ محمد الغزالي كتابه التعصب والتسامح:

لقد كان الدافع الذي دعا الكاتب إلى تأليف كتابه (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام) هو ما قام به أحد الكتاب الغربيين، فقد أمسك كاتب مسيحيي قلمه، وبدلا من تبرئة دينه من تهم ارتكبها آباؤه وغيرها... دار يطعن في مسلك الإسلام مع أهل الكتاب، ويذم تاريخ المسلمين في معاملتهم مستشهدا بمؤرخي أوروبا المتعصبين للأهواء، ومؤولا الحقائق ومزورا في التاريخ.

وانتشر خبر هذا الكاتب ووصلت أصداء كتابه إلى الشرق، وإلى مسامع أهل الغيرة على الإسلام، فَطُلِبَ إلى الشيخ العلامة محمد الغزالي أن يرد على تلك المزاعم ويبين حقيقة الأمر، فجاء رد الكاتب بهذا الكتاب الذي أسماه (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام).

وفي الكتاب يعقد الشيخ مقارنة رائعة بين تعاليم الإسلام وتعاليم المسيحية، ويبين مواقف المسلمين ومواقف المسيحيين والنصارى من المخالفين، ويتبع ذلك بصور من التاريخ والدساتير في معاملة المخالفين للرأي والدين على مر العصور، فكان في ذلك الجواب الشافي والرد الكافي على من يشكك في سماحة الإسلام وتسامح المسلمين.

ثانيا: طبيعة الكتاب كما يبينه الغزالي:

لقد بين الشيخ الغزالي طبيعة كتابه، وأنه إنما ألفه مضطرا لبيان الحقائق وكشف الافتراءات ودحض الأباطيل، فقال: "هذا بحث استكرهني أعداد الإسلام على خوضه، وهم لم يحسنوا إلى أنفسهم إذ فتحوا هذا الباب، كما ظنوا، ولا أساؤوا إلى الإسلام، كما أحبوا. ويبين الشيخ أن المسألة لا تعدو أن أحمق غرته الأماني فجاء يناوش القلاع الشم، فأصابته قذيفة أودت به ودمرت عليه مكمنه، وأن هذا الرد إنما بسبب استفزاز ذلك الرجل للمسلمين واعتباره الإسلام خطرا على البشرية.

والإسلام في الحقيقة لا يمثل خطرا على العالم كما يزعم ذلك الزاعم، فهو كما يبين الغزالي ليس خطرا على أمة بعينها أو جنس بذاته، وإنما هو خطر داهم الإذلال والتّعصب والختل[10].

ثالثا: منهج الكاتب:

يبين الكاتب طبيعة عمله ومنهجه فيقول: "ليس في هذا أكثر من سوق الحقائق مجردة عن أهواء المغرضين، وأكاذيب المدلسين". فهو يسوق الحقائق العلمية والتاريخية ويرد على الافتراءات والأباطيل، كما يقول أيضا: ولا يحسبن القارئ أني- في هذا الكتاب- ضخمت شبها ثم هدمتها، أو عنيت بحملات تافهة ثم رددتها.

لا، لقد أبصرت طلائع هجوم منظم على الإسلام، وكبر متين لأمته فأحببت أن أسحق الطليعة الجريئة حتى أشرد من خلفها.." [11].

أما عن طبيعة البحث فيقول: لقد كتبت هذا البحث وأنا مسلم أحترم ديني وأتمسك به، ولم يكن اعتناقي للإسلام حجابا عن تلمس الحقيقة في مظانها، والتقاطها حيث وجدتها.

ولست أعرف ما يكون وقعه عند أصحاب الأديان الأخرى، لكني أعلن أني أتلقى بقبول حسن كل نقد علمي يعتمد على الحق وحده، كما أعلن أني- وكثيرا من إخواني المسلمين- ما اعتدينا، بل رددنا العدوان، وما تحدثنا حتى حملنا غيرنا على الكلام وربما كانت الحقائق مرة في بعض الحلوق"[12]. وبهذا

يتبين لنا أن طبيعة البحث دفاعية خالصة، جاءت نتيجة العدوان الذي انطلق من هناك، وليست حملة على المسيحية لتشويهها والافتراء عليها.

- طبيعة الإسلام وخاصيته:

بدأ الكاتب بحثه ببيان مسألة مهمة هي طبيعة الإسلام كدين سماوي أنزله الله تعالى على خاتم النبيين محمد، ﷺ، وهي مسألة قلما يلتفت إليها كثير من الناس؛ هي ابتعاده عن الأحقاد الطائفية، ومحاربته للعصبية البغيضة المقيتة، فيقول: إن الأحقاد الطائفية، والحروب الدينية غريبة عن أرض الإسلام، فقد ألف هذا الدين منذ أن بدأ يعاشر غيره على المباشرة واللطف، وأن يرعى حسن الجوار فيما يشرع من قوانين ويضع من تقاليد وهو في ميدان الحياة العامة، حريص على احترام شخصية المخالف له، ومن ثم لم يفرض عليه حكمه أو يقهره على الخضوع لشرائعه، بل ترك أهل الأديان وما يدينون"[13].

ولكشف بعض ما يتميز به الإسلام في هذا الجانب، والتأكيد عليه يسوق أمثلة من المسائل الواردة في أمهات كتب الفقه لدى مختلف المذاهب الفقهية فيقول: "خذ مثلا الخمر والخنزير، إنهما بالنسبة للمسلم - لا يعدان مالا له قيمة، بل الحكم بحرمتهما ورجسهما معروف.

ومع ذلك فالمذاهب ترى أنهما بالنسبة إلى النصارى مال متقوم يصح تملكه وتمليكه، ومن ثم تعترف بالتعامل فيهما.

وانظر إلى ما يقوله أئمة الفقه الإسلامي في كتابي (البدائع، والمغني) إن أنكحة غير المسلمين لها أحكام الصحة، لم؟ لأنا قد أمرنا بتركهم وما يدينون.

وبلغ من احترام الحرية الدينية عند المسلمين أن يقبلوا زواج المجوسي من ابنته ما دامت شريعته تبيح له ذلك، ففي المغني، مجوسي تزوج ابنته فأولدها بنتا، ثم مات عنها فلهما الثلثان".

إن الإسلام كما يقول المؤلف لم يقم البتة على اضطهاد مخالفيه أو مصادرة حقوقهم أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم أو المساس الجائر لأموالهم وأعراضهم ودمائهم. وتاريخ الإسلام في هذا أنصع تاريخ على وجه الأرض"[14].

سيبقى مسلك هذا الدين مثلا أعلى لأروع ضروب التسامح والاعتدال مهما اجتهد المرجفون ونفثوا في أفقه الدخان، هذا هو طبع الإسلام وهذه هي طبيعته منذ بداية دعوته في مكة والمدينة.

الإسلام والتعصب والتسامح:

بعد أن مهد المؤلف بما سبق ذكره من بيان خلفية الكتاب والمنهج الذي سلكه، والمنطلق الذي يتوكأ عليه، ينتقل بنا إلى بحث الموضوع من أوجه كثيرة، منها ما يلي:

موقف الإسلام من العصبية والتعصب:

1- أولا: الإسلام بين عدويه العصبية والتعصب:

يبدأ الشيخ الغزالي في كتابه بمسألة في غاية الأهمية، وتعبر عن منهجية علمية دقيقة تنطلق من مقدمات أساسية واضحة، هذه المسألة هي بيان موقف الإسلام من العصبية والتعصب. ويعتبر العلامة محمد الغزالي أن التعصب والعصبية عدوان للإسلام.

إن العصبيات السائدة في الفكر والتاريخ، والتي تدعي أن جنسا أفضل من آخر، وأن عرقا أشرف من عرق، تدعي أن هناك جنسا مختارا هو الجنس الأبيض الذي يطلب من غيره من الأجناس أن ينحى ويفسح الطريق أمامه.

"إن هذه العصبيات لا يعنيها شيء من العقل ومنطقه، إن الذي يعنيها هو ما تحققه من منافع، أما موقف الدين من العصبيات، فهو الرفض التام لها "فهي في نظر الدين حماقة كبرى، والاعتراف بها هدم للأركان الأولى من الرسالات التي أنزل الله للعالمين.

إن قوام هذه الرسالات أن الإنسان مسؤول بنفسه عن نفسه، يقدمه ما اكتسب من خير فحسب، ويؤخره ما اكتسب من شر فحسب، ولا مكان في هذا الميزان القسط لتدخل بشر، كبير أو حقير، ولا حساب في تقويم شخص ما لوطنه أو نسبه، ولا اعتبار البتة لما تواضع عليه الناس من شارات الرفعة والخسة، ابن النبي وابن البغي سيان.

إن تأخر الأول في سياق الصالحات لم ينفعه حسبه، وإن تقدم الأخير لم يضره نسبه، وقد أوضح الله هذه المبادئ لا في قرآن محمد فحسب؛ بل في كتب الأنبياء الأولين كذلك: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾(النجم 36- 41). وتلك قاعدة تمليها العدالة.[15] بهذه العبارات يبين الغزالي أن الإسلام يعادي العصبية ويرفضها.

إن العصبية في الإسلام من بقايا التخلف، ومن مظاهر الجاهلية التي يجب تركها في بطون الكتب وفي سجل التاريخ؛ لأن الإسلام يمقت العصبية، ويكرهها ويرفضها. لقد عبر ﷺ عن هذا المقت والرفض حين قال: يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئا، ولأسرته: لا يأتيني الناس بأعمالكم وتأتوني بأنسابكم".

ولقد اغتاظ نبي الإسلام أشد الاغتياظ من النزعة الجاهلية السخيفة، فقال: لينتهين أقوام عن الفخر بأنسابهم الذين ماتوا إنما هم حطب جهنم، أو ليكون أهون على الله من الجُعل الذي يدهده الخرء بأنفه... إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء"[16]. بسوق هذه الجمل وهذه النصوص يبين الغزالي بوضوح أن الإسلام يقف ضد العصبية والتعصب كما أسلفنا القول.

وإذا كان الإسلام قد وقف هذا الموقف من التعصب والعصبية فإنه بذلك قد حسم الأمر في مسألة التسامح ووضع الأسس المثبتة له. فما هي مظاهر هذا التسامح؟ وما هو مسلك الغزالي في بيانها؟

- مظاهر التسامح في الإسلام ومسلك الغزالي في بيانها:

لما بين الغزالي موقف الإسلام من عدويه التعصب والعصبية، انتقل إلى بيان التسامح في الإسلام، وقد سلك في ذلك مسلكا قائما على تركيب منطقي دقيق ومحكم، فبدأ أولا بالحديث عن علاقة المسلمين بأهل الذمة، وبيان موقف اليهود والنصارى من غيرهم، ثم انتقل إلى الحديث عن موقف المسلمين من غيرهم عبر التاريخ، وسنقف عند أهم النقاط التي عالجها الشيخ الغزالي في مسلكه لبيان التسامح.

1- **المسلمون وأهل الذمة:** يتهجم كاتب غربي على الإسلام ويتهمه بأنه يشرع لإذلالهم واضطهادهم، ويعتبر هذا الموقف هو الطابع المميز للدين الإسلامي، فيقول هذا الكاتب متسائلا: إذا لم يكن العرب في حاجة إلى مساعدة الأقباط، هل كانوا يتبعون معهم سياسة التسامح.

والجواب كما جاء على لسان الكاتب المسيحي هو قوله: من الواضح أن النصراني لم يكن موضع اهتمام الحكام.." لماذا؟ لأن الإسلام يأمر بنبذه والبطش به.

ومع ذلك خرق الحكام الشريعة وخرقوا نصائح الفقهاء وأبقوه في وظيفته لأنهم كانوا في حاجة إليه.. ولم يتذكروا الشريعة والفقه إلا إذا أرادوا البطش بالأقباط، هذه هي فكرة الكثير من الغربيين عن الإسلام، وهذه هي المقولات التي تروج عندهم ويروج لها[17].

يردّ الغزالي على هذه الفكرة النصرانية المسيحية الغربية عن الإسلام أولا بالوقوف عند بعض الآيات التي ينطلقون منها وهي قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: 28) .

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ (المائدة: 51).

وقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ (التوبة: الآية8).

ويبين أنهم يسوقون هذه الآيات مبتورة عن سياقها، مقطوعة في نصوصها وهم في ذلك على دراية وعلم ويفسرها ويبين المقصود منها.

ويخلص إلى القول: "إن الإسلام كما يقرر كتاب الله يدفع عن نفسه إذا هوجم، ويسالم من يتركه وشأنه[18].

وبعد ذلك يسوق ما يدل على تسامح الإسلام مع أهل الذمة من سنة الرسول ومن موقف حكام المسلمين ممثلا فيما أعطاه عمر من أمان وعهد للذميين والذي تشهد به كتب التاريخ.

أما من السنة فيقف عند قوله ﷺ: "من قتل رجلا من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة، وإن ريحها لتوجد من سبعين عاما".

وقوله: "من ظلم معاهدا، أو انتقصه حقه، أو كلف فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة".

ولفت انتباهنا إلى أن النصارى يمرون على هذه الحقائق وتلك النصوص والسوابق ليتهموا الإسلام بما هو منه براء[19] هذا عن موقف السنة.

أما عن موقف المسلمين من أهل الذمة، فيسوق المؤلف مسلك عمر منهم، باعتباره يمثل الموقف الرسمي للدولة، ويقف عنده ويعرض النص الكامل للمعاهدة.

فيقول: روى أبو يوسف في كتاب الخراج أن عمر مر على قوم قد أقيموا في الشمس في بعض أرض الشام، فقال: ما شأن هؤلاء؟ فقيل له: إنهم أقيموا في الجزية! فكره ذلك! وقال: هم وما يعتذرون به، قالوا: يقولون: لا نجد؟ قال: دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون، ثم أمر بهم فخلى سبيلهم".

وقال أبو يوسف: وحدث أن مر عمر بباب قوم وعليه سائل يسأل، وكان شيخا ضرير البصر، فضرب عمر عضده، وقال له: من أي أهل الكتاب أنت؟ قال: يهودي: قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله وأعطاه مما وجده، ثم أرسل به إلى خازن بيت المال، وقال انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إذا أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، إنما الصدقات للفقراء والمساكين"[20].

ولعل أكثر ما يعبر عن جدية مسلك التسامح عند المسلمين هو نص تلك المعاهدة التي وقعها عمر مع رسل سفرنيوس أسقف بيت المقدس، ونصها كما يلي: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل "إيليا" من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، إنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من غيرها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود.

وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية كما يُعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فإنه أمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم.

ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية.

ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم أمنوا على أنفسهم وعلى بيعهم، وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم.

ومن كان من أهل الأرض، مما شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل "إيليا" من الجزية.

ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله. وإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية"[(21)].

والحقيقة التي سجلها التاريخ أن التسامح مع الغير بلغ ذروته عند المسلمين، حين وصل كثير من النصارى إلى مناصب مرموقة في عهد الإسلام المختلفة. وهو ما لم يتحقق لأي مسلم في ظل الحكم النصراني.

مقارنة بين موقف المسيحية والإسلام من الآخر:

يعرض الشيخ الغزالي مقارنة لطيفة وطريفة بين موقف المسيحية وموقف الإسلام من الآخر المخالف، فيقول: الأساس الذي تدور عليه معاملة أتباع الديانات الأخرى يختلف في المسيحية عنه في الإسلام.

فبينما يقبل المسلمون وجود أديان أخرى مغايرة لدينهم، ويرفضون إكراه أحد على ترك ملته، ويرضون أن يتألف المجتمع من مسلمين وغير مسلمين، ويشرعون نظما عادلة لتطبق عليهم وعلى من في ذمتهم من مسيحيين أو يهود... نرى المسيحية تتبرم بالديانات الأخرى، وترسم سياستها الظاهرة والباطنة لإبادة خصومها أو تحقيرهم وحرمانهم حتى ترغمهم على ترك دينهم وتجبرهم على النصرانية جبرا[(22)].

وبينما يقول القرآن: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ تنسب الكتب المقدسة إلى المسيح أنه قال لحوارييه: **أجبروهم على اعتناق دينكم**".

وقد نشأ عن هذا التفاوت بين المبدأين أن حركات التنصير، أو التحريق والاستئصال كانت ظواهر عامة في تاريخ المسيحية.

ويمضي الغزالي في بيان نتيجة التفريق بين الديانتين، حين يبين أن الإسلام استعمل اليهود والنصارى في الوظائف الكبيرة والصغيرة، وشاع ذلك الأمر في تاريخه، بينما المسيحية لم تفتح الباب للمسلمين وغيرهم حتى من أتباع المذهب المسيحي المخالف. ويسوق بعض الأمثلة على ذلك نذكر منها ما يلي:

يقول محمد الغزالي: "وأما التعصب المسيحي فهو لم يتجه إلى اضطهاد أهل الأديان الأخرى فحسب وإلى تحريم الوظائف الجليلة والتافهة عليهم، بل إن أتباع المذهب المسيحي الواحد، يحرمون أن يلي عملا بينهم صاحب مذهب مسيحي آخر.

وقد حدث من القرن الثامن عشر أن قتل محام بروتستانتي لأن القانون الفرنسي يومئذ يحرم مهنة المحاماة على البروتستانت، وقد حار هذا الحقوقي البائس بين التعطيل، الارتداد عن مذهبه إلى الكاثوليكية ليستطيع العمل في مهنته ماذا يصنع؟ أيترك عقيدته ابتغاء الرزق.

ولكن ارتداده يثير عليه أسرته المتعصبة، ثم انتهت هذه الحيرة بمقتله واتهم أبوه باغتياله فأعدم.

وقيل إنه انتحر يائسا وإن أباه لم يقتله تعصبا لمذهبه الديني، وتعرف هذه العصبية بمأساة "كالا".

ووقعت في العصر نفسه قصة مشابهة تسمى مأساة "سيرفين" فإن امرأة كاثوليكية كانت تخدم أسرة بروتستانية فأغرت ابنتها بالفرار إلى دير كاثوليكي حيث سوء العذاب لتغير عقيدتها، غير أن الفتاة تخلصت من عذابها بالانتحار غرقا في بئر"[23] فاتهمت السلطات الكاثوليكية أباها بإغراقها ليحول دون ارتدادها عن دينها، ثم صدر حكم قضائي بقتل الرجل وامرأته ومصادرة أملاكهما"[24].

هذه بعض القصص التي تعبر عن مدى استحكام التعصب وانعدام التسامح الذي شاع في معاملة المسيحيين بعضهم مع البعض.

وبعد أن ساق المؤلف هذه النماذج أعقبها بالتعليق بالقول: "في هذا الجو الكئيب المكفهر لا يمكن أن تستروح نعمة الحياة الكريمة والحقوق المصونة أقليات دينية أخرى بل أن تشغل بعض المناصب في الدولة"[25] هذا بعض ما ساقه

الشيخ الغزالي عن أحوال المسيحية وموقفها من الآخر. فكيف هو موقف الإسلام؟

موقف الإسلام:

ينتقل الشيخ الغزالي بعد أن تكلم عن موقف المسيحية إلى بيان موقف الإسلام، فيقول: "فإذا طويت هذه الصحيفة، استقر أن أحوال الذميين في ظلال الحكم الإسلامي، انتقلت من النقيض إلى النقيض، ورأيت المناصب من الوزارة فما دونها مباحة للأكفاء من اليهود والنصارى، بل لرأيت من تمكن هؤلاء من الحكم واطمئنانهم إلى رسوخ أقدامهم، وشعورهم بخلو الجو لهم". فقد تمكنوا في ظل الحكم الإسلامي من تقلد مناصب كثيرة، ولكن المؤسف أنهم استغلوا تلك السماحة وذلك التسامح، وعاثوا فسادا وإيذاء للمسلمين، ومحاباة طوائفهم في كل شيء، وتلك طبيعتهم التي اكتسبوها من ثقافتهم الدينية وتاريخهم الطويل.

إن الشيخ الغزالي يسوق ما يدل على تسامح المسلمين من الوقائع والأحداث فيقول: قال الدكتور "ترتون": لما لام الناس ابن الفران ورموه بالكفر لسوقه إمارة الجيش إلى أحد المسيحيين، دافع عن نفسه بأنه اقتدى بالخلفاء السابقين الذين ولوا النصارى وظائف الدولة وكان هؤلاء العمال النصارى يلقون كل مظاهر الاحترام.

وحدث في بغداد أن دخل أحد الوزراء النصارى واسمه "عبدون بن صاعد" على القاضي "إسماعيل بن إسحاق" فوقف له مرحبا ولاحظ القاضي أن الشهود وبقية الحاضرين أنكروا عليه ذلك.

فلما خرج الوزير قال لهم القاضي: قد علمت إنكاركم، وإن الله تعالى يقول: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾(الممتحنة 8).

وهذا الرجل يقضي حوائج المسلمين، وهو سفير بيننا وبين خليفتنا، وهذا من البر فأمّن السامعون على قوله ورضوا به"[26].

والقصص والأمثلة في هذا لا حصر لها، ساق منها الشيخ الغزالي الكثير وختم كلامه بالقول: "والمسلمون لا يرون ضيرا ولا عجبا في أن يساكنهم ويصاحبهم من لا يتفق معهم في الدين[27]

ولكن الذي يأسف له الغزالي أن المسيحيين حين وجدوا السماحة واللين لم يقابلوه بالمثل، وإنما استغلوه لغير الحق والخير والعدل فقال: فانظر كيف تستغل السماحة العالية في تولي المناصب أكبرها وأصغرها ثم في استغلال هذه المناصب للبغي والتعصب والتحزب.

ممن أو علا من؟ من الأقلية الممتعة المرفهة على الأكثرية المتراخية[28].

هكذا كانت السماحة من الإسلام وأهله، وكذلك كانت مقابلة هذه السماحة من غير المسلمين.

أسلوب التوسع والمعاملة في تاريط الديانتين:

ينتقل المؤلف إلى ميدان آخر من ميادين المقارنة بين الديانتين هو أسلوب التوسع والمعاملة فيعقد مقارنة بينهما، ليبين لنا إلى أي مدى كان الإسلام متسامحا في أسلوب التوسع وأسلوب المعاملة.

لقد كان أسلوب المسيحية في التوسع يتسم بالقسوة والشدة مع البشر الذين يقفون في طريقها، فسامت كل من يقف في طريقها ألوان الخسف والعسف والعذاب، حتى ضاق الناس بها من كل المجوس والمسيحيين وكل الطوائف "كانت مصر مزرعة لروما يكدح أصلها واديهم الأغبر ليفيض من عرقهم سبيل الضرائب الفادحة التي تذهب إلى أشراف الرومان.

فإذا حدث أن احتل الفرس البلاد بدل الروم، لم يتغير المصب، وبقي المنبع المستنزف على حاله الأولى"[29] بل هي كذلك أينما حلت وحيثما وجدت.

يقول الغزالي: "نجد الكاثوليكية في بلاد الروم تحارب المذاهب كلها ما عداها، قد استطاع أسلاف الإمبراطور د.هرقل أن يقضوا على مذهب التوحيد في أرجاء الإمبراطورية.

فلما انقسم المثلثون على أنفسهم في فهم الطبيعة الجديدة لديانتهم أبى الإمبراطور أن يعطي حق الحياة والأمان للآراء المخالفة وذوبها"[30].

وفي المقابل أذن المسلمون للجيوش بالبقاء على دينهم، ولم يحاولوا استكراههم على إيمان، ويقف الشيخ الغزالي عند تلك المحاورات التي تمت بين رسل الإسلام، أم رستم والمضمون الذي كان ينصب حوله النقاش ليستخرج

منه، ما يدل على ما يكشف عن الاختلاف الجذري بين طبيعة الديانتين فيقول: "ونحن لا نقف عند ما قاله الكتاب الصليبي هذا اللغو، ولكن قبل أن ندوسه وننتهي من سخفه يجب أن ننقل حوارا جليلا دار بين نفر من فرسان المسلمين وبين قواد كسرى وحاشيته ليرى أولو الألباب مبلغ قصة الصحابة القائمين لدينهم، ومعرفتهم العميقة لأموال الشعوب التي قدموا عليها وأنواع الحكم التي قرروا إسقاطها، ليروا كذلك بأي ضمائر فقيهة وأسلحة عفيفة كان حملة الإسلام يلقون خصومهم"[(31)].

إن تلك الحوارات التي دارت بين المسلمين وغيرهم في نظر المؤلف لن تكشف عن طبيعة الدين الجديد وعن أهداف عقيدة التوحيد، إننا كما يقول الغزالي: "نستبين منها وجهة الإسلام في الوثنية السياسية التي مد جذورها قرونا في هذه البلاد المستعبدة.

ونستجلي منها كيف تتحول عقيدة التوحيد إلى سياج يحفظ الحقوق العامة للإنسان، ويوطد أركان العدالة في المجتمع.

فممثلو هذه المفاوضات لا يناقشون الفرس في عبادة النيران، بل يخبرونهم أنهم جاؤوا ليخرجوا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله.

إنهم يتركون الناحية الشخصية ولكنهم يحطون العبودية السياسية، ثم ينقلون الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، أي أنهم يمهدون للناس باسم الإسلام، حياة رخية تتوفر فيها أسباب الأمان والراحة والترفيه"[(32)].

وعند المقارنة ينتهي الشيخ الغزالي إلى القول: "إنه لا مكان للمقارنة بين هذه الطليعة المؤمنة من جند الإسلام، وبين حملة الحضارة الحديثة إلى للأقطار المجهولة، والبلاد المتأخرة.

فدول الغرب استغلت تفوقها المادي في السلب والنهب، وحرصت ألا تهب الشعوب المغلوبة قسطا من المعرفة، وألا تنقل إليها من مظاهر حضارتها إلا بمقدار ما تعلم أنه ينفعها وحدها، تبقى الأرض المفتوحة وسكانها في أغلال رق مؤيد، ولو نظرت إلى تاريخ الثورة البيضاء في فرنسا، والحمراء في روسيا لوجدت المبادئ التي تهفو إليها الشعوب قد امتزجت بأحقاد لا تعرف موضعا

لعفو، فقتل "القيصر" في روسيا وأهلكت أسرته، كما قطع رأس الملك في فرنسا (لويس السادس) وسالت دماء الأشراف أنهارا في كلتا الدولتين.

وكانت فكرة القصاص لمظالم القرون السالفة هي التي تحرك أسلحة الثوار وتهيج مشاعر النقمة في أنفسهم، فانطلقوا وهم عبيد الأمس يدمرون قصور السادة ويتشفون برؤية دمائهم وأشلائهم وأنقاضهم[33].

أما العرب فقد صنعوا من حيهم وشهيدهم جسرا تعبر عليه عدالة السماء ودعوة الإنصاف، وأبدوا استعدادهم على لسان- النعمان- أن يعودوا من حيث أتوا تاركين دينهم وديعة لمن شاء الانتفاع بها[34].

إن جيوش الفاتحين إذا ما قورنت بجيوش الإمبراطوريات الأخرى سارت على منهج لم تختل فيه موازين المثل العليا شعرة، والتزموا في كفاحهم بملوك الدولتين الباطشتين بالعالم يومئذ حدودا من الحق والعفة والاستقامة، لا تعرف أبدا إلا في مواريث النبوات النابعة من السماء[35].

الإسلام وحرب الأجناس:

ومن مظاهر تسامح الإسلام أنه لم يعرف حرب الأجناس والأعراف. إن الإسلام ورجاله الأولين كانوا أبعد أهل الأرض عن هذه الحرب والعصبية "عن كسرى يزدجرد يقول لوفد العرب: إني لا أعلم أمة في الأرض كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم".

فما يجيبه أحد منهم بكلمة ينوه فيها بالدم العربي، ويرد اتهامات العاهل الفارسي وإنما كان كلام "قيس بن زرارة" له:

أما ما ذكرت من سوء الحال فكما وصفت أو أشد.

ثم إن الإسلام هو الذي رفع شأن العرب وأعز جانبهم.

إن الأجناس التي دخلت في الإسلام لم تلق في وجهها أحدا يزعم أنه أولى منهم بالله أو أحق برسوله.

كانت الأجيال المتفاوتة تدخل فيه كما تدخل الجماهير المرحة إلى حديقة عامة لا حظر عليها ولا أبواب ولا يفخر فيها أحد على أحد بأي ادعاء.

ولقد قال الله للرعيل الأول من أصحاب محمد محددا لهم مسلكهم من المشركين المقاتلين: "فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون" التوبة: 11.

إن الكل في ساحته سواء لا يمتاز عنصر على عنصر إلا بمدى بلائه ووفائه لهذا الدين العام[36].

ويمضي الكاتب في بيان عدم اكتراث الإسلام بالأجناس والألوان على عكس غيره إلى أن يقول: فإن المؤرخ المنصف لن يفوته أبدا تسجيل المزايا التي حصلت عليها الشعوب الداخلة في الإسلام على حساب العرب أنفسهم.

ذلك أن خلو الدين من تفضيل جنس على جنس، وتسويته المطلقة بين من اعتنقوه كافة، سمح للفرس والروم والترك وسائر الموالي أن يزاحموا العرب المناكب في ميادين النشاط العلمي والأدبي والفني، وأن ينتزعوا القيادة منهم في هذه الآفات الحرة.

فلم تمض خمسون سنة على ظهور الإسلام حتى كانت الكثرة الساحقة من فقهاء الأمصار الكبرى رجالا من الأعاجم وغيرهم، وصلوا إلى أماكن الصدارة دون أن يجدوا أمامهم عائقا.

وإننا لنلقي نظرة على تاريخ الإسلام الطويل فنجد أن علوم الشريعة من تفسير وسنة وتشريع، بل علوم اللغة العربية نفسها، قد بلغت تمامها واعتلت قمتها على أيدي رجال لا ينتمون إلى العروبة إلا بصلة التجنس.

ولولا الإسلام وما بثه في النفوس والجماعات من سماحة مشكورة ما حدث هذا قط[37]، وقد استطاعت الأجناس الأخرى بفضل سماحة الإسلام، خاصة في ظل الحكم العباسي، أن تجمع بين السيادتين العلمية والسياسية.

أما عند الأوروبيين والمسيحيين فيقول المؤلف: "إنه منذ أن كون الإنجليز إمبراطوريتهم ما تحول الحكم من جنس معين ولا انتقل من عاصمة معينة. أما الدولة التي أقامها الإسلام فما أكثر الأجناس التي امتلكها، وما أكثر العواصم التي تنقلت فيها بين الشرق والغرب، ذلك أن الإسلام- كالعلم- لا وطن له، وليس له مستقر يأرز إليه إلا القلب الإنساني الكريم[38].

❖ كيف دخلت المسيحية مصر وكيف دخلها الإسلام:

هذا ميدان آخر من ميادين التسامح الذي سجله التاريخ للإسلام والمسلمين وقد اتخذه المؤلف دليلا لدحض افتراءات من يفتري على الإسلام وسماحته فعقد مقارنة بين دخول المسيحية مصر، ودخول الإسلام، سنقف عند بعض عبارات فيها باختصار.

يبدأ الغزالي هذا المبحث بالقول: إن من ألوان الحرب التي تشن الآن ضد الإسلام اعتباره طارئا على البلاد، وفد عليها مع فاتحين غرباء، ثم استقر فيها على كره من أصحابها الأصلاء، وهذه مزاعم مضحكة فإن كلتا الديانتين جاءت مصر من الخارج".

ويرد على هذه المزاعم المضحكة، بالقول لو كان من حق أهل بلد أن يطردوا الأفكار الغريبة عن بيئتهم لأنها ليست أفكار مواطنين أصلاء، لوجب إخراج المسيحية والإسلام معا من مصر"[39].

وحين دخلت المسيحية إلى مصر ظلت ينظر إليها على أنها ديانة أجنبية وحاصرها المصريون، "ترك مسيحيو مصر ديانة أجدادهم مكرهين لأن ديانة الفراعنة ومعابد الفراعنة وآلهة الفراعنة كانت تذكرهم بمجد مصر في مختلف عهودها، فلا غرابة إذا ظلت معتقداتهم الأولى راسخة في نفوسهم رابطة في قلوبهم بعد اعتناقهم المسيحية".

لم تمكن المسيحية من البقاء في مصر إلا بعد أن حرقت ومزجت لعقائد المصريين الوثنية "فقد نجح المصريون كوثنيين في فرض أفكارهم وعاداتهم على المسيحية نفسها.

إن تعاليم المسيحية المنتشرة في مصر إنما أحدثها الرسول المتعلم بالإسكندرية، وأنه أخذ تعاليمه من وثنية الإسكندرية، وإن خيوط الثالوث المقدس حبكت في الإسكندرية، وإن آلهة قدماء المصريين الثلاثة "إيزيس" و"هدين"، و"سيزابيس" قد استحالت عند بولس الأب والابن والروح المقدس"[40]

ولم يقبل المصريون المسيحية إلا عندما عرفوها وطوعوها لعقائدهم الوثنية، حتى إذا حوروها كما يشتهون دخلوا فيها[41].

وإن المصريين لما استبان لهم أن الثالوث المسيحي تجديد للثالوث المصري القديم أقبلوا على المسيحية باعتبارها فلسفة مصرية بحتة وليست ديانة يفرضها الرومان الغاصبون لبلادهم"[42].

الإسلام يدخل مصر:

تختلف نشأة الإسلام اختلافا كبيرا ، فالإسلام تحول على عجل إلى دولة يرأسها النبي ولها جيش وتسيطر على جزيرة العرب، ولها دستور محفوظ مكتوب يعيه أصحابه ويحفظونه في صدورهم.

ورغم محاولات الطاعنين وعروض المشركين على خلط القرآن بالوثنية ، والجمع بين الديانتين إلى أن ذلك باء بالفشل.

وقبل مجيء الإسلام بمصر كان الصراع فيها محتدما بين الروم والفرس حتى انهزم الفرس وتوطد حكم الروم فيها[43].

لما توجه جيش المسلمين لمصر بقيادة عمرو بن العاص، وأخذ طريقه إلى القاهرة التقى بهم جيش الروم، وقبل أن تندلع المعارك بينهم دار حوار بينهم بطلب من عمرو بن العاص؛ فدعاهم إلى الإسلام وذكرهم بوصية النبي بأهل مصر لأن هاجر أم إسماعيل جد النبي من مصر.

روى البخاري: أن النبي قال: إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها ، فإن لهم ذمة ورحما أو ذمة وصهرا" فقالا : قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء"، وطلبوا الأمان.

ولكن المعركة في نهاية الأمر وقعت وانهزم الروم بعد تفرق جيشهم وأرسل أهل البلاد إلى عمرو بن العاص يطلبون الصلح، فأجابهم لذلك وأمضى معاهدة صلح مع المصريين.

ونصها : "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم، وأموالهم، وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم، لا دخل عليهم شيء من ذلك ولا ينقص.

وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إن اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف درهم وعليهم ما جنى لصوتهم، فإن أي أحد منهم أن

يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك.

ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم.

ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا

عليهم من عليهم أثلاثا، في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم.

ومن أدى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ جباية ثلث ما عليهم.

على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين وعلى النوبة الذي استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا، وكذا وكذا فرسا على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجار صادرة ولا واردة"

وتعليقا على النص يقول الغزالي: ويجب أن نقرر بعض الأسباب التي جعلت المصريين يستريحون لهذا العهد المعروض عليهم ويمضونه راضين:

1- فقد استردت البلاد حريتها الدينية كاملة، ونالت ضمانات الصحة أن تبقي للمعاد قداستها فلا تقحمها أحدا، ولا تخدش شعائرها وكان هذا بما افتقدوه في ظل حكم الرومان واختلاف المذاهب.

2- خف حمل الضرائب (5 دراهم في العام) وتختص عند هبوط منسوب المياه وتقسط على ثلاث مراحل في العام.

3- لا يجوز للمسلمين منع بحاره صادر ولا وارد.

4- يجب عليهم إلغاء الضريبة منع أي غزو وعدوان على مصر.

5- من دخل للصلح من غير المصريين فله ما لهم وعليه ما عليهم.

وقد كانت حضارة الإسلام نظريا وعمليا بالأقباط وتحبرهم من النصارى، سببا في تهافتهم على اعتناق الدين الجديد وتحول كثرتهم عن أديانهم السابقة[44].

هل أضرت بالمسلمين سماحتهم:

هذا سؤال جدير بالطرح والتأمل، وقد أحسن المؤلف وأجاد إذ وقف عنده وهو يرد على تلك الافتراءات التي رددها كاتب حاقد على الإسلام متحامل

عليه، وهو سؤال ملح اليوم أكثر من أي وقت مضى، ونحن اليوم في أمس الحاجة إلى الإجابة عنه.

يقول الكونت: ولقد درست تاريخ النصارى في بلاد الإسلام فخرجت منه بحقيقة مشرقة: هي أن معاملة المسلمين للنصارى تدل على لطف في المعاشرة وترفع عن الغلظة وعلى حسن مساير ورقة مجاملة.

وهذا إحساس لم يؤثر عن غير المسلمين؛ فإن الشفقة والحنان كانا يعتبران- لدى الأوروبيين- عنوانا للضعف.

ويقول الغزالي معلقا: وهذه ملاحظة لا أرى وجها للطعن فيها، والتسامح باعتباره فضيلة، فهو مما لا يجب أن نندم عليه ولذلك يوضح المسألة بقوله: ونحن لا نندم على فضيلة اتصف بها آباؤنا، لكن من حق الكريم إذا أعطى أن يبصر أين تقع منحته؟ فلعله يرسل هديته لمن يستعجل منيته [45].

إن الغزالي بعد أن ساق الكثير من المواقف بين المسيحية والإسلام التي اتسمت بمنتهى التسامح حتى مع المعتدين، يأسف لكون النصارى واليهود استفادوا من التسامح حين كانوا مستضعفين، فلما استقام لهم العود واستوى وتمكنوا من وسائل القوة تهجموا على الإسلام واتهموه بالتعصب واعتدوا على حقه في الوجود.

ويخلص إلى القول: إنني أكره التعصب وأحس المرارة التي ذاقها المستقدمون والمستأخرون من لوثاته، وكيف لا نكره التعصب ونحن المسلمين، أشد الأمم تعرضا لآثامه وآلامه؟ إلا أننا وإن كرهنا التعصب ننبه إلى منقصة شر منه، ونعني بها جحود السماحة، واستضعاف صاحبها الكريم السهل.

أليس مما يغص الإنسان به أن ثلاثمائة وألفا من السنين تمر على الأقلية اليهودية في بلاد الإسلام، فلا تضار في حال أو ولد، ويمر عليها هذا الدهر الطويل في بلاد النصرانية وهي تطارد من بلد إلى بلد، ثم ماذا تكون العقبى؟

أما جزاء المطاردين فقد ترك اليهود بلادهم هاربين، وأما جزاء السُّمحاء الأخيار فقد أقبل اليهود على بلادهم هاجمين، كأن جزاء التعصب أن سلم أصحابه من العدوان، وجزاء الاعتدال أن يتحمل أصحابه الهوان"[46].

خاتمة:

في ختام هذه المحاولة نستطيع الخلوص إلى ما يأتي

أولا نستطيع القول: إن التسامح قيمة إسلامية راسخة، ترتكز على أمرين أساسين، الأول هو الاهتمام بالتسامح في جانبه النظري، حيث إن النصوص القرآنية والحديثية نظرت للتسامح بالقدر اللازم.

ثانيا: ممارسة التسامح في تاريخ الإسلام كفعل ملازم للسلوك الإسلامي منذ عهده الأول، ومنذ قيام دولته بقيادة الرسول ﷺ، ومن جاء بعده من الخلفاء.

كما نستطيع التأكيد على أن الإسلام هو الدين السماوي الوحيد الذي تجسد في ظله التسامح، مع كل المخالفين من أهل الديانات الأخرى. لكن واقع الديانات اليوم في ظل تأخر المسلمين عن ركب التقدم والحضارة، ووجودهم في حال من الضعف، كشف عن طبيعة الديانتين الأخريين وعدم تسامحهما كما سبق بيانه.

لكننا نشير في الأخير إلى أن بعض تصرفات المسلمين انطلاقا من قراءتهم الخاطئة أو فهمهم السقيم للدين ولعلاقة المسلمين بغيرهم قد شوش على جوهر الإسلام وتاريخه الناصع.

المراجع:

1 – د طه جابر العلواني: الغزالي وصفحات من حياته، مجلة إسلامية المعرفة، العدد7، السنة 2، 1997.

2- ابن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، دار السلام. مصر 2005م.

3- د محمد عمارة: السماحة الإسلامية، مصر. مكتبة الشروق الدولية القاهرة، ط 1 2005م.

4- محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام. القاهرة، نهضة مصر، 1997م

الهوامش:

[1] ابن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص 22. 23.

(2) د محمد عمارة: السماحة الإسلامية، مصر.مكتبة الشروق الدولية القاهرة، ط 1 2005م. ص 9.

(3) انظر ابن عاشور:نفسه، ص 24.

(4) محمد عمار:نفسه، ص 9.

(5) محمد عمارة: نفسه، ص 11.

(6) انظر عمارة: نفسه، ص 11.

(7) انظر: عمارة:نفسه، ص 16.

(8) إسلامية المعرفة، العدد7، السنة2، 1997م.

(9) انظر طه جابر العلواني: الغزالي وصفحات من حياته، مجلة إسلامية المعرفة، العدد7، السنة 2، 1997، ص5.

(10) انظر: محمد الغزالي، التعصب والتسامح، ص3.

(11) الغزالي: نفسه، ص4.

(12) ـ الغزالي: نفسه، ص 5.

(13) نفسه، ص5.

(14) نفسه، ص5.

(15) الغزالي، نفسه، ص10.

(16) الغزالي، نفسه، ص16.

(17) الغزالي، نفسه، ص35.

(18) الغزالي، نفسه، ص37.

(19) انظر: الغزالي، نفسه، ص39.

(20) انظر: الغزالي، نفسه، ص40

(21) الغزالي، نفسه، ص44.

(22) الغزالي، نفسه، ص50.

(23) انظر: الغزالي، نفسه، ص51.

(24) الغزالي، نفسه، ص52.

(25) نفسه، ص52.

(26) نفسه، ص52.

(27) نفسه، ص57.

(28) نفسه، ص57.

(29) الغزالي، نفسه، ص104.

(30) نفسه، ص104.

(31) نفسه، ص105.

(32) الغزالي، نفسه، ص108.

(33) الغزالي، نفسه، ص112.

(34) النعمان بن مقرن.

(35) الغزالي، نفسه، ص112- 113.

(36) الغزالي، نفسه، ص119.

(37) الغزالي، نفسه، ص123.

(38) نفسه، ص125.

(39) الغزالي، نفسه، ص164.

(40) نفسه، ص166.

(41) نفسه، ص167.

(42) نفسه، ص175.

(43) نفسه، ص175.

(44) الغزالي، نفسه، ص180.

(45) - الغزالي: نفسه، 210

(46) ـ انظر الغزالي نفسه،ص 211.